ولكننا من ناحية أخرى لا نريد أن نسلم بإلغاء ما بعد الحياة، ولا نريد أن نعده غير جدير بأن يوضع في الحساب كما فعل الواقعيون الاشتراكيون، والفلاسفة الماديون. فالإنسان ذو أبعاد داخلية، وخارجية، وفوقية أيضاً. ويجب أن تراعى كل هذه الأبعاد أثناء التفكير في وضع خطة أو منهج لحياة ا لإنسان، ما دام هذا الإنسان معقداً إلى درجة أنه أصبح «مشكلة»[٦٩] من المشكلات العويصة. فمن الخطل أن ينظر إلى الكائن البشري من الخارج فحسب، لأنه ليس ظاهرة طبيعية بسيطة مثل النمل أو النحل، بل كائناً منفصلاً عن الطبيعة يعمل، ويتأمل، ويأمل.

وإضافة إلى هذا فإن هناك ملاحظة نفسية لافتة للنظر، يحسن بنا أن نشير إليها، وتتعلق بتقبل الآثار الأدبية التي تخلو من التفاؤل، فالنقاد أو القراء ـ على وجه العموم لا الحصر ـ يميلون إلى الأدب المتشائم أكثر من ميلهم إلى الأدب المتفائل منذ القديم، إنهم يخلدون تراجيديات «سوفوكل» و«إسخيل» و«يوريبيد» و«شكسبير» ويضعونها فوق كوميدياتهم، ويعجبون باللوحات الفنية ذات الألوان القاتمة أكثر من إعجابهم باللوحات ذات الألوان الفاقعة المشرقة. وقد يذهب قائل إلى أننا نقبل على الكوميديات أكثر من إقبالنا على التراجيديات. وهذا يبدو لنا سليماً لأول وهلة، ولكن الحقيقة أن تلك الكوميديات التي نقبل عليها أحياناً هي نفسها تنطوي على عناصر مأساوية مرة. إن «دون جوان» موليير مأساة عاتية في حقيقتها، وكذلك «طرطوف». وربما كان ميلنا إلى التراجيديا عائداً إلى عنصر الصراع الذي تمتاز به، وهذا بعكس الأدب المتفائل الذي يكون فيه الصراع ضعيفاً عادة.

ومهما يكن من أمر، فإن الذي يهمنا الآن هو أن نقف على سر تفاؤل الواقعيين الاشتراكيين: لماذا يتخذون من التفاؤل مبدأ في أدبهم؟ إن السبب الرئيسي في تفاؤل الواقعيين الاشتراكيين هو إيمانهم بالفلسفة الماركسية التي غيرت نظرتهم إلى التاريخ. لقد أكدت هذه الفلسفة أن هناك قوانين تاريخية